

يعيشون بيننا

يحيى بن محمد الراضي - أبو هجر مواليد الأحساء عام 1390هـ.

لم يدُرْ في خلدي يومًا وأنا أنظرُ إليه صبيًّا لعله في الثانية عشرة من العمر بتلك الكوفية البيضاء، ودشداشته الصفراء، وهو يمشي على استحياء لا تتجاوزُ نظرةُ عينيه ظلَّ قامة، ولم أكن أراه قط إلا في ذهابه وإيابه من مدرسته الابتدائية في قريته (الحوطة - بمدينة العمران)، مطأئِ الرأس كأنه يبحثُ عن مستقبله. لم يدُرْ بخلدي أن هذا الشبل الخجول حدَّ الانكماش أنه سيحملُ هذه الألقاب الكبيرة حسب الأعراف الدينية، والأكاديمية، والأدبية: الشيخ / يحيى الراضي في المصطلح الحوزوي، الأستاذ / يحيى الراضي في المصطلح الأكاديمي. وسندباد القصيدة الهجرية كما أطلق عليه الأديب والشاعر الكبير ناجي بن داوود الحرز، كلقبٍ لشاعرٍ تنقَّ ل بالقصيدة بين البلدان كسفيرٍ للأدب والشعر والحب، حملَ القصيدة في غرفة قلبه ونضَّجَ شاعريته: من إيران، إلى سوريا ولبنان، قبل أن يجلَّ ق بجناحيه: شعره وفقهه في سماء العراق. ورغم غيابه عن الأحساء منذ نعومته إلا أنها مزروعة على سفح عينيه / براءة فسيلة وشموخ نخلة.

ذاب قلبي من صورة الأحساء

حادي العيسر كم كتمت وفائي

خذ فؤادي للقيصريَّة يهدى

ثم عفَّ ر في أرض هجر سمائي

ثم مزَّ ق دفاتر الشوق فيها

ربما يقرأ التراب رثائي

لا أحبُّ الأحساء لا أشتهيها

هو ذا المستحيل من كبرائي

أنا جثمان غربة يتسلى

بحكايا جماجمِ العظماءِ .

أستعيرُ الهوى لأيِّ بلادٍ

في خيامِ المهجِّرِ من غباءِ

لم أتبَّ بعدُ من هوى عجريِّ

بدويِّ التقي جديدِ الفضاءِ

(لا أحبُّ الأحياءَ) كبسولَ نومِ

لهروبٍ من حرقةِ الانتهاءِ

لا أجدُ الحديثَ عنها وفيها

وقصيدي لها مذابُ نداءِ

*

وقال في المنام ! :

يا موطني هاجَ الحنينُ إليكَ من أفُقٍ بعيدِ

وأنا وأنتَ كدمعتينِ أُريقتا في يومِ عيدِ

شاعرنا الشيخ أبو هجر لم يكن مؤلفاً أو مستغرباً أن يكونَ بهذا الوقارِ المغلِّفِ بالحياءِ ، أو

الحياءِ المشبَّعِ بالوقارِ لِمَا أعرُفُهُ

عن أسرتهِ وعائلتهِ من الالتزامِ المطلقِ بكل ما هو عقدي وديني واجتماعي وعرفي، فأبوه رجلٌ لا

تكادُ تخرج الكلمةُ من فيه إلا حيث مَطَّ لا يدُّها ، قليل الظهور إلا في المناسباتِ الخاصةِ جداً ، يقفُ

في الظلِّ ولا

يتحركُ في الفراقِ، ووالدتهُ واحدةٌ من القارئاتِ البارزاتِ في الخطابةِ وإلقاء الشعرِ ولعلها هي من

أجرتَ نهرَ ذوقه الشعري وهو

يستلهمها نبع فرحٍ أو عزاءٍ وهو ما زالَ صبيّاً في سنيه الأولى، وعمُّه هو الحاج الملا على الراضي

المرشد الديني والخطيب الحسيني، خدمَ المنبرَ أكثرَ من خمسين عاماً ، وكان قد سبقه من هذه

العائلة بل ومن البيئة إلى

الدراسة الحوزوية في النجف الأشرف عدةٌ طلبيةٌ أصبحوا من كبارِ علماءِ الدين منهم المحقق الراضي

... ولا أعلم إذا كان هذا هو المُحفِّزَ لأبي هجر للاندفاعِ بهذا الاتجاهِ لبدأ رحلةٍ دينيةٍ

حوزويةً في هجرةٍ طويلةٍ لطلبِ العلمِ بعدَ أن أنهى دراستَه في مدرسةِ العمرانِ الابتدائيةِ (بالحوطة) ليليثَ في الغربيةِ أمدًا طويلًا بين الدراسةِ والتدريسِ نهارًا إلى بواكيرِ المساءِ، ومعاينةً أُنثاهُ القصيدةَ حتى مطلعِ الفجرِ.

كم ذا سهرتُ لأسكرَ الصفحاتِ من نجوى اليراعِ فتستلذُّ حلالا
الحبرُ خمري، والدفاترُ حانتي، والشعرُ يوردُ للظماءِ زلالا
ونأيتُ عن وطني! لأسكنَ صفحةً بيضاءَ يملؤها الشعورُ مقالا .

سورية الشام كانت هي محطُ مسيرتهِ الثانيةِ وفيها أسسَ مع مجموعةٍ من الشعراءِ وعلى رأسهم السيد مصطفى جمال الدين (منتدى الأربعاء الثقافي) عام 1995 وإدارة الأستاذ المرحوم بنوان اللامي، ليبدأ مرحلةً أدبيةً وشعريةً جديدةً منفتحةً على القصيدةِ بكلِّ أشكالها... هذا الانفتاحُ الذي ربما لم يكنُ مُتاحًا له في بعض مدن الحوزات!! الوادعةُ إلى التوجُّسِ والاحتياط - آنذاك - عن التفنن واللغةِ الشاعريةِ.

هذه مرحلةٌ ثقافيةٌ انتقلَ بها أبو هجر أو نقلته نحو قضيةِ حياته في الشعرِ والفكرِ وفي التفقُّهِ والنقدِ .

شيخنا يجمعُ الانسجامَ مع الأضدادِ ممن صحبهم ذهنيًّا بين الشريف المرتضى والمعري، بين ابن رشد والغزالي.. هذا تراثُهُ المؤثرُ ثم لم يعدْ يرى أيَّ شيءٍ أهمَّ من القضيةِ الثقافيةِ .

يحيى أبو هجر متواضعٌ في مظهرهِ حدَّ الشفقةِ، هادئٌ في طبعه حدَّ السكونِ، متفجرٌ في خطابه حدَّ البركانِ، جريءٌ في شعره حدَّ الفتنةِ، ربما يحتاجُ نصُّه لأكثرِ من قراءةٍ لِمَا يحملهُ من ثقلِ أدبيٍّ... شاعرُنَا الراضي لم تُثقلْ كتفيه - عن حمل رسالةِ الشعر - عباءتُه، ولم تحرفْهُ عن مغازلةٍ...

نماذج من شعره:

وفي يومِ القيامةِ سوفَ نلقَى

قصائدَنا التي شهفتْ وطارتْ

ستأتي عبرَ ديوانِ الضحايا

كموتانا من الأحداثِ قامتْ

سيحملُها ملائكةُ النوايا

عرائسَ في زفافِ العذرِ جاءت°

تعوِّضُنَا عن العمرِ المسجَّسِ

على ورقِ التوجُّدِ حين عادت°

**

وفي يومِ القيامةِ سوفَ نحطى

بما يمحوهُ جوِّ الُّ الكتابه°

غدًا تنهالُ من أرشيفِ غيبِ

على حجرِ المجاعةِ والصبايه°

دفاترُ من أكفِّ الحورِ عادت°

إلى الأحضانِ تجهشُ كالربابه°

وتشغلُنَا عن اللذاتِ شوقًا

إلى شكوى قرائحُنَا المذابه°

دفاترُ طالما صغُنَا عليها

رذاذَ القلبِ من وحي الغلابه°

ستشغلُنَا الدفاترُ عن هُدانا

عن الجنَّاتِ عن حالِ الصحابه°

نقلِ سُدُّها، نقيبِ لُها ونلهو

ونسهو بالقصيدِ عن القرايه°

(على باب مسجد)

أبكي وأضحكُ كالمجنونِ يذهلُنِي

طردي من القربِ بعدَ الأنسِ بالدارِ

وعدتُ أطرُقُ كالشحاذِ بِأبْكَمُ

وكم دخلتُ بلا خوفٍ من العارِ

هل تفتحونَ؟ أنا (بِحياكمُ) استمعوا

آوي إليكمُ أم آوي إلى النارِ

طرقتُ بابَ رجاءٍ طالَ موعدهُ

وعدتُ أخجلُ من تيهي ومن جاري

بالبابِ تبكي يدي والعينُ نافذةُ

للسوقِ تدمعُ من أعماقِ تذكاري

فسامحوني على هجري على شغبي

وأرجعوني إلى تأديبِ أطواري

تقبلي لونيَ درويشًا يسرُ هنا

بخدمةِ الحبِّ لا توئينَ عشتارِ

بالبابِ أبكيتُ حتى النملَ يبصرُني

طريردُكمُ عائدًا من تيهِ أقطارِ

فلا التفلُّسُفُ أوى جوعَ خاطرتي

ولا الدروسُ أفادتني بمعشارِ

ولا تسلنيَ أين الناسُ كورَ نهم

قبلَ الوباءِ لهاتُ خلف مزمارِ

نيسانُ كيف نسينا خصرةَ البلدِ

وشهوةَ البوحِ عن تغريبةِ الكبدِ

هَجْرَتَنِي يَا نَسِيمَ الدَّارِ مَفْتَرِشًا
تِيهِ الزَّوَابِعِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرَّمْدِ

حَتَّى أَلْفَنَّا فِرَاقَ الحَالِ وَاصْطَلَمْتُ
فِي الذِّكْرِيَاتِ تَفَاصِيلَ بِلَا مَدَدِ

كُلُّ الْجِهَاتِ بِلَادُ الأَخْرِينِ فَهَلْ
يَا وَرَدَ نَيْسَانَ مَن شَوْقٍ إِلَى بَلَدِي؟

الشَّعْرُ نَشَوْتُكَ الأَخِيرَةَ بَعْدَمَا
هَجَرْتُ أَنَا جِيلُ السَّعَادَةِ غَيْبَهَا

وَاسْتَغْفَرَ العَنْبُ الشَّرِيفُ بِسَكْرَةٍ
وَمَغَامِرَاتُ الوَجْدِ جَسَّتْ شَيْبَهَا

قُلْ يَا قَصِيدَةَ هَاهُنَا جَسْدُ التِّي
جَسْدُ التِّي؟ يَا شَعْرُ إِحْذَفْ رَيْبَهَا

سَجَلٌ هَوَاكَ بِقَبْلَةِ صُوفِيَةٍ
وَإِخْلَعُ مِنَ القَصَصِ الشَّهِيَةِ عَيْبَهَا

يَا شَعْرُ وَحْدَكَ مَبْعَثُ الأَنْفَاسِ مَذْ
شَقَّتْ عَلَى مَوْتِ التَّحْرُّرِ جَيْبَهَا.

وَبَرِئْتُ مَن شَوْقِي إِلَيْكَ مَوْلِيًّا
وَجْهِي إِلَى عَدَمِ أَرَايْتُكَ بَرْقَه

هُوَ شَوْقِي الأَصْلِي كَيْفُ نَسِيْتَهُ
بَيْنَ الوُجُودِ وَعَدْتُ أَعْبُدُ شَرْقَه

شوقي إلى عدمٍ يذيبُ توذُّني

لوجودِ أطيافٍ تكذبُ صدقَه

يا أيها العدمُ الرحيبُ نسيتُها

فعلَى الوجودِ بأنَّ يرتبَ عتقَه